الفصل الثالث

الرموز الثقافية والدينية

١ - أهل الصلاح بين المجتمع والدولة:

أ - رموز الاستقطاب:

*** الشريف:**

هو من ينحدر نسبه من ذرية الرسول محمد ﷺ بواسطة ابنته فاطمة وزوجها على كرم الله وجهه. وظهور الشرفاوية Cherifisme يعود إلى البروز السياسى للعلويين بالمغرب الأقصى مع الأدارسة[١] والسعديين[٢]. أما ألفرد بال فقد "علل ظهور الشرفاوية فى القرن السادس عشر إلى عزوات المسيحيين على الشواطئ وعجز الحكومات القائمة آنذاك عن ردهم مما فسح المجال لظهور ردود الفعل الدينية"[٣]. أما فى تونس فقد قلصت الدولة الفاطمية من نفوذهم السياسى والدينى وذلك لإقصائهم من قبل الصراعات المذهبية. لكن لم ينقطع نفوذهم الأدبى والدينى سواء فى العهد الحفصى أو العهد الحسينى. فلابايات الحسنيون يعظمون بيوت الشرف ويجلون ساداتها. فأحمد باى كان يتشيع لهم ببره وصلاته وكان يسمى ما يعطيه لهم "هدية" ولا ينطق الإحسان

---

١ - يقول ابن أبى الضياف: "والمغرب يسلم الكرامة لهذا السيد حيا وميتا (ادرس بن إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسين ابن المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنهم) الإتحاف ١/ ٣١.

٢ - "اتخذ السعديون من الانتماء إلى السلالة النبوية وسيلة لكسب مزيد من احترام الشعب وتقديسه انظر إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء المغرب. الطبعة الأولى. (١٣٨٤/ ١٩٦٥) ٢/ ٣٥٦.

٣ - ألفرد بال: الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى مع الفتح العربى حتى اليوم ترجمة عبد الرحمن بدوى. دار المغرب الإسلامى. ط ٣ ١٩٨٧ ص ٤٢٨.

على عادة البلاد. وأخبره بعض الوشاة يوما أن الشريف محمود محسن لا يحبه ويؤثر عليه ابن عمه فقال: "ما أسعدنى لو أحبنى وإن كان لا يحبنى فماذا أصنع مع ابن على وفاطمة"[١].

أما عامة أهل المملكة فهم يدينون بحب آل البيت يستوى فى ذلك عالمهم وجاهلهم حتى أنالنسوان عند طلق الولادة ينادون "يا محمد يا على"[٢]. وابن أبى الضياف بدروه يحترم كثيرا علماء الأشراف ويتيمن ببركاتهم شأنه فى ذلك شأن الشيخ إبراهيم الرياحى الذى كان يرغب فى محبة الشريف محمود محسن "ويقدمه على نفسه"[٣]. فالشرفاء فى القرن التاسع عشر يتمتعون بخطوة كبيرة من قبائل البايات والعلماء. كما تخشى دعواتهم العامة وتتقرب إليهم. "لأن الحسنة فى نفسها حسنة وهى بيت النبوة أحسن"[٤].

*** الولى:**

يعود ظهور الصلاح والزهد الصوفى فى تونس إلى أواخر أيام بنى عبيد الذين ألغوا الوظائف الجهادية للرباطات[٥] وذلك لخلو العدو المتوهم من

---

١ - الإتحاف ٤/ ١٩٩.

٢ - الإتحاف ١/ ١٥٤.

٣ - الإتحاف ٤/ ١٥٨.

٤ - الإتحاف ١/ ٣١.

٥ - الرباط هو عبارة عن حصن مربع يتكون من طابقين. يرقى إلى الثانى منهما بسلم ويحتوى كل منهما على غرف تطل على صحن تحيط به أقواس. وفى كل زوايا الحصن برج لمراقبة العدو. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ١/ ١٩٠.

- أول رباط أقامه العرب بإفريقيا رباط المنسيتير أسسه الولى هرثمة بن أعين سنة ١٨٠هـ. على غرارها حصن به الرشيد العباسى ثغور البلاد فى الشرق. انظر محمد=

الخارج وتوقعهم الخطر من الداخل لا سيما وقد أصبح الرباط فى عهدهم ملجأ المعارضين والرافضين لكل مذهب مخالف للسنة. لذلك وقع تجريد المرابطين من الأسلحة ومن مهمات الدفاع عن السواحل والثغور. آنذاك "تفرغوا للذكر والميعاد ومد اليد للطعام"[1]. وتفرق رواد الرباطات داخل البلاد ينشرون الصلاح ويخرقون العادات بالكرامات حتى أصبحوا فى منظور العامة أولياء الله الصالحين. وقد تجاوزت حركة الأولياء الحواضر إلى البوادى والمداشر لا سيما ونشاطهم لا يتناول السياسات. والتبرك بالأولياء أحياء أو أمواتا يعود فى الحقيقة إلى أدبار الشيعة العبيديين لأن الناس كانوا يتبركون بهم أحياء مثل وصف ابن رشيق لسيده. أما أهل تونس فكانوا يجلون كثيرا الشيخ محرز بن خلف الصديقى[2] الذى حملهم على قتل الروافض من الشيعة. وكان يعتبره ابن أبى الضياف "خاتمة صلحاء إفريقية"[3]. وكل منمر على قبره وقتئذ يأخذ من ترابه شيئا حتى إذا ركب البحر وعصفت الريح "أخرج من تراب قبره شيئا فتسكن الريح ويزول الخطر"[4].

والمجتمع التونسى فى القرن التاسع عشر استمر على ولائه الشديد للأولياء وأهل الصلاح سواء كانوا فى القبائل أو فى المدن. فالوالى داخل

=النيال البهلى: الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامى. تونس (١٣٨١هـ/ ١٩٦٥م) ص١٦٣.

١ - نفس المرجع ص ١٦٧.

٢ - محرر بن خبف بن زين الصديقى التونسى (٣٤٠ - ٤١٣) - (٩٥١ - ١٠٢٢) كان يلقب بسلطان المدينة لمناقبة وكراماته المتعددة. انظر المصدر السابق ص ١٨٢.

٣ - الإتحاف ١/ ١٦٩.

٤ - الإتحاف ٣/ ٦١.

القبـيلة هو الحامى للأرض وهو الذى يوزع الـبركة على السكان. أمـا المدينة فكل طائفة يمثلهـا ولى يكشف عنها الضر ويتوسل إليـه بتقديم الرابين وربط الخرق ورفع الصناجق. أمـا الدولة فقد أخـرجت هذه الظاهرة التقديسـية من إطار الشكلانية الشعبـية إلى إطار الرسمية حيث "سن حمـودة باشا الحسينى زيارة الأولياء قبل الأسفار"[1].

وابن أبى الضيـاف كان بدوره يعـتقد فى كـرامة الأولياء وبـشارتهم من ذلك كرامة الشـيخ على المازغنى تلميذ الولى سيدى أحـمد الباهى الذى قص عليـه رؤياه قائلا: "بشـر أمك فإن والدك تسـرح: يقول ابن أبى الضـياف: وتسرح أثر ذلك بأيام"[2].

*** شيخ الطريقة أو الزاوية:**

إن الأسبـاب التى سـاهمت فى ظهور الطرق الصـوفيـة والزوايا[3] فى التاريخ الاجتـماعى التونسى لا تقف عند حـد معين، وذلك لتضـافر عوامل داخلية وخـارجية اشـتركا فى بعث هـذه التنظيمات الدينيـة التى ترتكز على

---

١ - الإتحاف ٣/ ٦١.

٢ - الإتحاف ٨/ ٤٧.

٣ - الزاوية تعنى فى اللغة الركن - وهذا المصطلح يعكس استقـرار الصوفية بتاسيس الزوايا. وأول من أسس الزاوية الأولى بالشـرق: الأميـر صلاح الدين الأيوبى والمعـروفة بخنـقاه "سعيـد السعداء" فى مصـر. وقد نسج الملوك والأمراء على منواله فى البلاد الإسـلامية انظر محمد النيال البهلى: الحقيقة التاريخية للتصوف ص ٣٤٢,

- وانبـعاث الزاوية فى تونس بدأ بتـعليم الصـبيـان والأميـين التعليم الدينى والأمـر بالمعروف والنهـى عن المنكر داخل البوادى الأمر الذى تعـذر على الحكومات القـيام به. لذلك وكل الأمر إلى شيوخ الزوايا - نفس المرجع ص ٤٤٤.

أساس معرفى مجرد ينزع نحو المقامات الربانية، إلى جانب إشرافها على بعض الأعمال الخيرية والتعليمية. ومن أبرز هذه العوامل نذكر:

- تحول الرباطات من مكان لحراسة الثغور والجهاد إلى خوانق للتعبد والخلوة والمجاهدة الصوفية. "وبذلك تحول المنستير إلى أول زاوية بعد مسجد السبت فقامت فيه حليقات الذكر الجماعى مع الضرب على الصدور حتى الإغماء"[1].

- محاولة تجاوز الخلافات المذهبية والثورات المتكررة بين أهل السنة والخوارج والشيعة والعمل على توحيد المسلمين دون إفساد للعقيدة. "فزعماء الطرق الصوفية نزلوا بمستوى التعليم المذهبى والعلمى ليجعلوه فى مستوى فهم العامة لكنه لم ينهض بعد ذلك أبدا"[2].

- التعليم الإسلامى المالكى داخل المدن ترك فضاء رحبا داخل البوادى والأرياف مما استدعى الحضور الطرقى والصوفى لملء هذا الفراغ روحيا واجتماعيا. "فتحت التأثير المتفاقم لأعمال الغزالى أصبح المذهب السنى المزافق منذ عهد بعيد على درجة معينة من الزهد يقبل كثير من مظاهر التجربة الصوفية"[3] لا سيما بعد انقضاء العهد المرابطى الذى عمل على إحراق كتاب الإحياء لنقده الفقهاء المعارضة للتصوف. وظهور الفكر الموحدى الذى قلص من نفوذ الفقهاء

---

١ - المصدر السابق ص ١٦٦.

٢ - ألفرد بال: الفرق الإسلامية ص ٣٩٣.

٣ - روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ - ترجمة حمادى الساحلى. دار المغرب الإسلامى - الطبعة الأولى - بيروت لبنان ١٩٨٨ ص ٣٥٢.

وسلطتهم. لكن الفكر السنى عموما رغم صرامته قد توافق فى الواقع مع العقيدة الصوفية لمساهمتها فى رفع المستوى الذهنى والأخلاقى للعامة لا سيما عربان البلاد.

- دخول الإمام الشاذلى[1] تونس سنة (٦٤٢هـ) بأمر من عبد السلام مشيش "الذى أوصاه أن يبدأ دعوته بشاذلة من أعمال تونس"[2].

فالأسباب إذن كثيرة لا يمكن حصرها. لكن المهم فى كل ذلك هو نجاح الطرق الصوفية فى احتواء المجتمع التونسى عامته وخاصته وهيمنة فكرها الصوفى على التعليم الفقهى والتمذهب الدينى سواء فى العهد الحفصى أو العهد الحسينى. فالتعاليم الصوفية نزعت المنزع الشعبى وساهمت كثيرا فى تأصيل ظاهرة الصلاح وبركة الشيخ حيا أو ميتا فى مخيال العامة والخاصة. وكان "المبدأ الذى عمل الشاذلى على توضيحه انطلاقا من المغرب - تونس - مصر يتلخص فى كون التصوف والحياة صنوان لا تعارض بينهما"[3].

---

١ - سيدى أبو الحسن على الشاذلى أو "سيدى بلحسن "قدم من المغرب الأقصى إلى تونس. ولد سنة (٥٩٣/ ١١٩٧) فى قبيلة غمارة وكان شيخه الولى الصالح مولاى عبد السلام بن مشيش المتوفى حوالى (٦٢٤/ ١٢٢٧) شقيق جد أشراف وزان. اعتكف فى جبل زغوان ملجأ الزهاد والورعين آنذاك وعمل على نشر تصوفه ثم انتقل فى عهد أبى زكريا إلى مدينة تونس. وهناك تألب عليه جماعة من الفقهاء الذين حسدوه على ما ناله بصيت بإفريقية وتزعم المعارضة والكيد له ابن البراء قاضى الجماعة آنذاك. عندئذ تحول إلى مصر ومنها إلى الحجاز. توفى سنة (٦٥٦/ ١٢٥٨) المصدر السابق ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

٢ - إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ٢/ ١٠٤.

٣ - علال الفاسى: التصوف الإسلامى بالمغرب. مجلة الثقافة المغربية عدد ١ يناير - فبراير ١٩٧٠ ص ٢٤.

وقد تدعم فى العهد الحسينى النفوذ الدينى الاجتماعى والسياسى للزوايا والطرق الصوفية لا سيما وأن مؤسس الدولة حسين بن على تم ترشيحه بإحدى الزوايا بالحاضرة. بل أكثر من ذلك اعترف الحسينيون بالطرق الصوفية قانونيا وتم وضعها إداريا تحت إشراف رئيس عام يسمى شيخ مشايخ طريقة ما"(١).

ويماثل موقف ابن أبى الضياف من الصالحين موقف معاصريه فهو يعتقد فيهم ويحترمهم ويضفى عليهم مسحة الإكبار والسيادة كقوله: العارف بالله - سيدى الشيخ... لكن الدارس لكتاب الإتحاف يصعب عليه أن يميز بين الشريف والولى وصاحب الزاوية وذلك لتشابه صفاتهم وتداخل أعمالهم مع وظائف الدولة. لذلك يصعب تحديد طبقاتهم. لكن انطلاقا من سياقات النص المختلفة يمكن تصنيف أهل الصلاح حسب المقاييس التالية:

- الولى لا يكون صالحا إلا إذا كان يتمتع ببركة عجيبة تجعل منه كائنا استثنائيا يخشاه الناس ويرغبون فيه فى نفس الوقت فهو يستمد نفوذه من عمله ومعرفته بالله والبركة التى يملكها. لذلك لما أراد الوزير يوسف صاحب الطابع إعانة بعض الصالحين سأله الباى عن كرامته قائلا "وأى كرامة له.... قال له: لا كرامة ولا ولاية. يستحق هذه الأرض لثباته وشجاعته"(٢).

---

١ - عدنان العجيلى: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسى بالبلاد التونسية (١٨٨١ - ١٩٣٩) دكتوراه حلقة ثالثة - تحت إشراف: الأستاذ رشاد الإمام الجامعة التونسية. كلية الآداب (١٩٨٦ ى - ١٩٨٧) ص ٩.

٢ - الإتحاف ٨/ ٤٥.

- الولى لا يكون صالحا إلا إذا اتفق الناس على كرماته كالسيد حسن الشريف الذى يعود نسبه إلى آل البيت "فإن لأهل تونس تيمن به فى أمورهم ولو برأى منه"[1]. فالولى هو من يعرف تدينه ويشتهر زهده بين الناس كالسيد عبد الملك العونى الذى لم يلبث فى خطة الكتابة إلا أسبوعا فى بيت خزندار فى عهد حموده باشا "ثم طار به جناح الجذب إلى ناجعته"[2].

- شيخ الطريقة غالبا من يكون من أحفاد أهل الصلاح والأولياء كالشيخ اسماعيل الباهى ابن الولى أبى العباس سيدى أحمد الباهى فقد "تقدم شيخا بزاوية جدهم"[3].

- شيخ الطريقة غالبا ما يكون مفتيا أو إماما مثل السيد أبو الشاذلى بن المؤدب فقد كان يشغل إلى جانب خطة الإفتاء والإمامة رئاسة الطريقة الشاذلية "وقد مشى الباى فى جنازته كواحد من أهل الطريقة"[4].

- شيخ الزاوية قد يكون ممن ينسب إلى صلاح فى قومه كجد والد أحمد بن أبى الضياف الذى كان سائحا مجذوبا "وقد بنى على قبره حموده باشا المرادى قبة. . . . وحبس على زاويته بسليانة هنشيرا"[5].

---

١ - الإتحاف ٨/ ١٨١.

٢ - الإتحاف ٨/ ٤٤.

٣ - الإتحاف ٨/ ٣٤.

٤ - الإتحاف ٤/ ١٢٦.

٥ - الإتحاف ٨/ ٣٧.

- شيخ الطريقة قد يكون من أعيان البيوت كالسيد على الشريف الأندلسى الذى ينحدر من أبناء أعيان أشراف الأندلس "وقد تقدم شيخا لطريقة الولى العارف بالله سيدى محمد بن عيسى الباقية بركته حتى الآن"[1].

انطلاقا من هذه النماذج المذكورة نلاحظ فقدان الزاوية أو الطريقة لمضمونها الروحى والدينى وانحرافها عن لحظة انبعاثها وتأسيسها.

فالولاية أو رئاسة الطريقة والزاوية أصبحت تبوأ حسب الاعتبارات التالية:

- الوراثة والنسب الرفيع.
- المنزلة الاجتماعية: أعيان البيوت.
- النفوذ الدينى: شرف الخطة
- النفوذ الاجتماعى: (الصلاح فى قومه).

والكرامة تكون حسب الصفات التالية:

- النسب الشريف.
- الشهرة (الصلاح والبركة).
- الوفاء فى خدمة المخزن.

---

١ - الإتحاف ٨/ ٧١.

ب - توزيع الحراك داخل الحقل السياسى والاجتماعى:

نظرا لأزمة الحراك السياسى بين الجهاز الإدارى المملوكى والمجتمع لا سيما القبيلة ونظرا للمشترك الثقافى والمشروعية التاريخية التى تجمع الطرفين، فقد شكل أهل الصلاح أو "الجسم الصوفى" الممثل فى (الولى الزاوية والطريقة) وما يمتلكه من رأسمال رمزى دور الوسيط الفاعل الذى يعمل على إعادة توزيع الحراك، وذلك عبر إضفاء الشرعية على ثقافة القبيلة وأعرافها من جهة والتدليل على الشرعية السياسية للمخزن من جهة ثانية. وعلى هذا الأساس فقد ساهم أهل الصلاح فى دفع الحراك وتوزيعه بين المجتمع والدولة حسب المستويات التالية:

*** الانتماء:**

لقد استقطب أهل الصلاح فى القرن التاسع عشر اهتمام جميع الناس سواء كانوا من رجال الدولة وسكان المدن أو من أبناء القبائل وسكان المداشر وذلك لأهمية الحراك الروحى والمعرفى الذى ينظم علاقات الجماعة ولا يعرف حدودا. "فالجسم الصوفى" يعيد باستمرار ترتيب الواقع والأولويات ويغرق ثقافة المجتمع بالأبعاد الرمزية والأدبية. فالدولة الحسينية ذات الأصول اليونانية كانت تتحسس ضعف نسبها وغلبة النزعة العسكرية التى تميز رجالها، مما حدا بابن أبى الضياف إلى وصف بعضهم بالأمية والضعف من أخلاق الرئاسة وعوارض السياسة. وتجاوزا لهذه النقائض سعة الدولة إلى اعتناق ثقافة المجتمع المحلى والتماهى مع عاداته وتقاليده. فحسين بن على مؤسس الدلوة دعم ملكه بمآثر عمرانية تمثلت بالخصوص فى بناء المدارس وتحديد بناء الزوايا ووضع القباب على أضرحة الأولياء.

"وكان يعتقد فى ولاية السيد إبراهيم الجمنى"[1]. فالحسينيون أرادوا البرهنة على انتمائهم الروحى لأهل الصلاح واندماجهم الفعلى مع ثقافة المجتمع. لذلك "كان حموده باشا من أتباع الطريقة القادرية[2] ومن المساهمين فى بناء زاويتها بمنزل بو زلفة[3].

أما أحمد باى فإلى جانب تعظيمه للأشراف واحترامه للأولياء "كان هو وأخيه من أهل الطريقة التيجانية[4]"[5].

فالدولة كانت تعبر عن انتمائها بالاعتقاد والمحبة أولا ثم ببناء الزوايا وحبس الإقطاعات على الأولياء إلى جانب الهدايا والمنح... وإذا لم تعلن

١ - انظر الإتحاف ٢/ ١٢٩.

يقول ابن أبى الضياف "وللباى حسين محبة واعتقاد فى هذا السيد وأشر له بالولاية وبنى على ضريحه قبة ولم تزل الملوك تعظم زاويته وذريته لهذا العهد. نفس المرجع.

٢ - القادرية نسبة للشيخ سيدى عبد القادر الجيلانى ولد فى جيلان ورتء طبرستان سنة ٤٧١هـ انتقل إلى بغداد فى شبابه وأخذ عن شيوخ العلم والتصوف. وبرع فى أساليب الوعظ وكان يأكل من عمل يده. تصدر للتدريس والإفتاء ببغداد ومات بها سنة ٥٦١ هـ اجتمع به فى مكة الشيخ أبو مدين وأخذ عليه الطريق ولبس من يده الخرقة. ومر أبو مدين بتونس عند رجوعه من الحج فاجتمع به الأصحاب. والطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية فى تونس وكانت زاوية المنزل أول قادرية بتونس صدر فيها أمر من الأمير برعايتها وحصانتها.

محمد النيال البهلى: الحقيقة التاريخية للتصوف ص ٣٢١.

٣ - انظر عدنان العجيلى: الظرق الصوفية والاستعمار الفرنسى للبلاد التونسية ص ٩.

٤ - التيجانية نسبة إلى أحمد التيجانى العلوانى المتوفى سنة (١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م) متصوف. زاهد عرف بدروسه وكراماته. أسس طريقة بمدينة فاس المغربية. وقد انتشرت بتونس على يد الشيخ إبراهيم الرياحى الذى اجتمع بالتيجانى عند سفره إلى المغرب - انظر محمد النيال البهلى: الحقيقة التاريخية للتصوف ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

٥ - الإتحاف ٦/ ٨٠.

الدولة عن انتمائها إلى أهل الصلاح وتتغافل عن ولائهم ونفوذهم تسقط شرعيتها السياسية من أنظارهم ويتمنون لها الزوال، من ذلك إن شيخنا مجذوبا جاء يتقدم قبيلته لبيعة عثمان باى، فقال: "أين الباى؟ فقالوا هذا وأشاروا إليه. فقال لم أره ثم قال من ولاك. فقال له باش حانبة أولاه الله تعالى. فقال المجذوب أنا لم نوله"(١).

أما بالنسبة إلى العلماء فهم بدورهم يحترمون الأولياء الصالحين ويتيمنون بالأشراف. فالشيخ إبراهيم الرياحى كان ينتمى إلى الطريقة التيجانية بل أكثر من ذلك كانت له علاقات بشيوخ الزوايا وأبنائها "كاستقباله فى بيته لابن شيخ الطريقة التيجانية"(٢).

أما عامة الناس سواء بالمدن أو الأرياف فإنهم كانوا بدورهم ينتسبون إلى الأولياء والطرق المختلفة. "فمن لا طريقة له فطريقته شيطانية"(٣). ففى الحاضرة مثلا كان "سيدى البشير يمثل شيخ جنود زواوة وسيدى بقطاش شيخ جنود الترك وسيدى بوسعيد رايس البحارة وأم الزين البوهالية بية الأمحال - أولياء طوائف الصناعات(٤).

وإذا كان البايات والوزراء ورجال المخزن كما بينا سابقا ينتمون إلى الطريقة التيجانية فإن أرباب الحرف الشعبية شاذلية وأرباب الصناعات التقليدية قادرية"(٥).

---

١ - الإتحاف ٦/ ١٣١.

٢ - انظر الإتحاف ٣/ ١٩٩.

٣ - الصادق الرزقى: الأغانى التونسية الدار التونسية للنشر الطبعة الثانية ١٩٨٩ ص ١٠٧.

٤ - انظر عثمان الكعاك: التقاليد والعادات التونسية ص ٨٢ - ٨٣.

٥ - نفس المرجع ص ٨٣.

كذلك الشأن لسكان الآفـاق فى القبائل والمداشر فهم أكثـر ولاء لشيوخ الطرق والأولياء وذلك لما يقدمونه لهم من خدمات جليلة ومتنوعة نذكر منها:

- التخفيف من العداوة القائمة بين العروش بسبب النهب والغارات.

- نشر التعليم وتقديم الخدمات الاجتماعية.

والأهداف الاجتماعـية للزوايا داخل المجتمع القبلى تظهر من مـواقعها "الاستراتيـجية" إذ غالبا مـا تكون "قرب معبر خطـير من طرق السابلة... فزاوية بن عزوز أقيمت بخنقة تالة ولم تكن آهلة بالسكان"(١).

فالقبائل تعظم كثيرا أهل الشـرف والفضل والصلاح وتعتقد فى بركاتهم أيما اعتقاد حتى "أن الواحد من قـبيلة زواوة إذا حلف بحق سيدى البشير لا يكاد يحنث وسبحته إلى آلاف يتبركون بها ويتعاهدون عليها"(٢).

وهذا الاعتـقاد الجازم مـن قبل سكان المداشر والقـبائل لا تبـرره رمزية الطريقة وتأثيـرها الروحى من جهة أو "أيديولوجيـة الانتماء" من جهـة ثانية بقدر مـا يبرره الواقع الاجتمـاعى المضنى الذى يفتقـر إلى كثير من الخـدمات عجزت الدولة عن توفيرهـا لهم. لذلك فإن عائلة البكرى ذات النسب العربى القرشى دفـعتها مـروءتها وكرمـها إلى "بعث زوايا لعدة عـروش كالمواطيس والحسنة وزياد يستقلون برئاستها وزكواتها"(٣).

---

١ - عبـد الجليل الميساوى: زوايا الوسط الغربـى ودورها الاجتماعى - الحـياة الثقافـية السنة السابعة - العدد ٢١ ماى - جوان ١٩٨٢ ص ٦١.

٢ - الإتحاف ٣/ ١٥٧.

٣ - الإتحاف ٧/ ٦٠.

*** الاحتماء:**

المقصود بالحتماء هو إحساس المنتسبين لبعض الطرق والأولياء أنهم فى حمايتهم وعنايتهم دفعا للسوء وتجنبا للمكروه. فقد أوثر عن الشيخ أبى مدين بن شعيب بن حسن الأندلسى قوله: "بى قل وعلى دل فأنا الكل"(١). فالوالى عند القبائل هو الحامى للأرض والسكان. لذلك يتقربون إليه بالقرابين وربط الخرق والأخذ من ترابه. والولى إذا كان حيا يعاهد بالمحافظة وإذا كان ميتا يعاهد بربط خرقة تكون عقدتها الميثاق بينهما"(٢). وقد كانت الحاضرة تسمى بالمحروسة لأن الأولياء بمثابة سلاطين المدينة يحرسونها من كل سوء وسكانها فى حمايتهم حتى "أن الولى العارف بالله سيدى أحمد زروق يسميها قصافة الجبابرة"(٣).

يقول: وكل جبار إذا ما طغى وكان فى طغيانه يسرف

أرسله الله إلى تونس إذ كل جبار بها يقصف

وقد كانت حرم الأولياء والزوايا تشكل الملاذ الوحيد لسكان الإيالة إذا ما أحسوا بخطر أو داهمهم شر وبلاء لا يقدرون عليه خاصة إذا أرادوا رفض أمر سلطانى. فإن الحرم أو مقام الولى رمز لوحدتهم وتناصرهم مثل رفض أبناء الحاضرة المحليين لتجنيد أبنائهم فى الخدمة العسكرية حيث "اجتمع كثير منهم بمقام الولى سيدى محرز بن خلف رضى الله عنه وشربوا من حوضه وتعاهدوا على نصر بعضهم"(٤).

١ - انظر مصطفى بدرى: الرؤية السياسية من خلال رسالتى محمد بيرم الخامس مصطفى فاضل الدار التونسية للنشر ١٩٩٣ ص ٤٣.

٢ - انظر عثمان الكعاك: التقاليد والعادات التونسية ص ٨٤.

٣ - الإتحاف ١/ ١٨٥.

٤ - الإتحاف ٣/ ٢٦٤.

وللوقاية من بأس وشر الجند كانت العامة إذا خرجت إلى الطرق وترفع صناجق الأولياء. وتوزيع حق الاحتماء لم يكن قصرا على العامة. فكلما اشتد الكرب ببعض الأمراء أو أبنائهم نتيجة الفتن والدسائس يتوجه بعضهم إلى الزوايا يطلبون المساعدة أو الشفاعة مثل التجاء ابنى عثمان باى إلى الشيخ بلغيث البكرى يطلبون مساعدته سنة (١٢٣٠/ ١٨١٤) فقال لهما: "امتد كما بالدعاء وطلبة الزوايا"[١]. وكشرط للأمان كانت خاصة المماليك تتوثق فيما بينها بالسبحة ودليل الخيرات[٢] إلى جانب الاحتماء بالزوايا كانت الدولة تتيمن بالشرف. ففى سنة (١٢٦٦/ ١٨٤٩) لما ظهر فى المملكة وباء الكوليرا أو ما يعبر عنه فى الحجاز بالريح الأصفر وقع توظيف أربعين شريفا اسمهم المشترك محمد للدعاء وكشف الضر. آنذاك "تراجعت الشدة ونقص عدد الموتى"[٣].

*** المشاركة:**

إلى جانب توزيع الانتماء والاحتماء إلى عامة الناس وخاصتها ثبتت مشاركة أهل الصلاح فى خدمة الدولة أحيانا ومقاومتها أحيانا أخرى.

---

١ - الإتحاف ٣/ ١٢٩.

٢ - دليل الخيرات وشوارق الأنوار فى ذكر الصلاة على النبى المختار "لمحمد بن سليمان بن أبى بكر الجزولى السملانى الشريف الحسينى المتوفى سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م. كان منتشرا فى العالم الإسلامى وفى تركيا بالخصوص. بلغ احترام التونسى لهذا الكتاب وتبركهم به كبيرا حتى أن البايات كانوا يبعثون بنسخ منه مع سبحاتهم إذ منحوا الأمان لأحد. كما أوقف عدد من أهل البر والأوقاف على قراءة هذا الكتاب فى المساجد.

- د. أحمد عبد السلام: المؤرخون التونسيون فى القرن ١٧و ١٨ و١٩م. ترجمة أحمد عبد السلام/ عبد الرازق الحليوى بيت الحكمة قرطاج ١٩٩٣ ص ٦٢ (الهامش).

٣ - الإتحاف ٤/ ١٤٩.

- المشاركة المخزنية:

من جملة تفاعلات السلطة مع الزاوية هو تشريكها فى العمل الاجتماعى والسياسى للدولة مثل تفويض المشير أحمد باى إلى الزاوية أمر تسريح العبيد وعتقهم حيث "عهد الأمر لزاوية سيدى محرز والزاوية البكرية وزاوية سيدى منصور يكتبون لكل من أتى مستجيرا حجة فى العتق عن سيده"[١]. كما كان لبعض شيوخ الطرق وظائف فى الدولة كالسيد أبو محمد الشاذلى بن المؤدب شيخ الطريقة الشاذلية الذى يشغل نفس الوقت خطة القضاء والإفتاء. هذا إلى جانب مشاركة الأشراف وانخراطهم فى سلك الدولة. وكذلك الأمر بالنسبة لشيوخ الزوايا والطرق خارج الحاضرة فهم يقدمون خدمات جليلة للدولة لعل من أبرزها مشاركة "شيوخ الزوايا بالكاف حموده باشا الحسينى فى حربه ضد الجزائر"[٢]. وكذلك استمالة الشيخ مصطفى بن عزوز لقبائل الهمامة ونفات وأولاد عون وقبائل جلاص وعلى بن غذاهم نفسه وكف عاديتهم عن الثورة والخروج عن الدولة. "وقد عقد الباى يده بيد الشيخ وعاهده على الوفاء بالعهد فى أمان الناس"[٣]. وإلى جانب المشاركة الفعلية والمباشرة اعتمد البايات على المشاركة الرمزية لبعض الأولياء الصالحين كما فعل حسين بن على فى حربه للجزائريين سنة (١١١٧/ ١٧٠٥) الذى ادعى عن تحالف الأولياء معه لإثارة الرهبة فى قلوب الأعداء إذ "استرجع مدفعا من النحاس كان مردوما وذلك بإشارة من السلطان الأولياء سيدى عبد القادر الجيلى"[٤].

---

١ - الإتحاف ٤/ ٩٨.

٢ - الإتحاف ٣/ ٦١.

٣ - الإتحاف ٥/ ٢٠١.

٤ - الإتحاف ٢/ ٢٠٩.

- المشاركة ضد المخزن:

شارك بعض الأشـراف وشيوخ الزوايا فى ثـورة العربان ١٨٦٤ وأعلنوا صراحة خروجـهم عن سلطة الدولة. كمشاركة السيـد الشريف على بن عمر من أعيان مساكن وابنه اللذان "غمسا أيديهما مع القوم"(١). وكذلك مشاركة الشيخ الحاج مبارك صاحب الزاوية بتالة فقد كان الرجل بشعار التصوف يسعى مع كل قـوم ويهب مع كل ريح"(٢). ومن جملـة المشاركين ايضـا فى ثورة ١٨٦٤ شيخ الزاوية بمنطقة سوف وهى بالصـحراء الجزائرية. ومن الذين ماتوا ضربا بعد القبض عليهم إلى جانب شيخ الطريقة بتالة نذكر وفاة "ولد الشيخ سيدى أبى حميدة صاحب القبة فى الفحص"(٣).

جـ - أزمة الحراك:

من أبرز أسباب هذه الأزمة نذكر:

*** توارث الولاية والصلاح:**

لم تخل مؤسسة الطرق والزوايا من مبـدأ النسب وشرط الوراثة فبمجرد موت الأب تتحول الولاية إلى الأحفاد. فالشـيخ إسماعيل الباهى الذى تقدم لزاوية جدهم وفاة عمهم "كانت قراءته بغصب من أبيه"(٤).

فالوراثة هى الـتى جعلت الكثيـر من الأميـين وبسطاء العقـول يحتلون مراكز القيادة الروحية وهم عنها بعـداء لا يستحقون جدارتها. وهكذا انحرفوا

---

١ - الإتحاف ٥/ ٢١٤.

٢ - الإتحاف ٦/ ٣٧.

٣ - الإتحاف ٦/ ٣٨.

٤ - الإتحاف ٨/ ٣٤.

بالزوايا عن وظائفها الروحية والاجتماعية وساهموا فى تنمية الخرافة والأسطورة داخل المخيال الشعبى، حتى أن بعض العامة اتخذوا من حجر بشاطئ البحر سموه كرسى الصلاح "يذبحون به ويلقون المذبوح فى الماء"(١).

*** الانحياز المخزنى:**

كما بينا سابقا؛ فإن الدولة الحسينية عجزت عن ممارسة الحكم باعتباره مشروعا اجتماعيا وسياسيا منفتحا، وذلك لصعوبة الحراك بينهما وبين المجتمع القبلى خاصة. لذلك طفقت تبحث عن مشروعيتها داخل المجتمع عبر استثمار ولاء الزعامات القبلية وأعيان البيوتات كسلطة مدنية تمهدها بالسيف والبرنس لتسهيل دفع الجباية. فبقيت السلطة الروحية التى تتوسط المجتمع والدولة لقوة تأثيرها الدينى واستقطاب رأسمالها الرمزى للجميع. فقد ساهمت هذه المؤسسة فى توزيع الحراك الاجتماعى والسياسى والدينى والتحكم فى شبكة المجتمع بفضل نفوذها الروحى والمادى لكن تطور علاقاتها المخزنية جعلها تضفى الشرعية على الدولة وتلغى شرعية المجتمع فى التعبير عن حقوقه. فتحولت بالتالى إلى عون مخزنى. فتقلص وزنها لدى المجتمع واتهمت بالخيانة والغدر كموقف فرج بن دحر الرياحى من المصالحة التى قام بها الشيخ مصطفى بن عزوز إذ يقول مخاطبا على بن غذاهم عند تراجعه عن الثورة: "ولنا مع سيدى مصطفى بن عزوز موقف بين يدى الله وعلى كل حال فقد حاق بنا الغدر"(٢). وكذلك موقف أهل مساكن أو الساحل الذين

---

١ - الإتحاف ٣/ ٨٠.

٢ - الإتحاف ٥/ ١٩٣.

امتنعوا عن قبول الشيخ الصالح السالك أبو العباس أحمد بن الوارث وقالوا: "ما بال هؤلاء يرسل إلينا فى البباصين"[1].

لذلك فقد استفحلت أزمة الثقة بين شيوخ الزوايا والطرق وبين عامة الناس خاصة بعد عجز الولى محمد العيد شيخ الطريقة التيجانية عن حماية على بن غذاهم لما استجار به. "فنقم الناس على هذا السيد... الذى آثر إكرام القرى وراحة الفابور... من حماية من استجار به وسقط من أعين الناس"[2].

فسقطت الطريقة وزعماؤها من المخيال الشعبى وذلك بعد أن تحولت إلى خدمة المخزن - بذلك فقد ترتب على انحراف للمشاركة ذهاب الاحتماء وسقوط الانتماء بل تحول الاحتماء بالطرق الصوفية إلى الاحتماء بالأجانب، "كالتجاء السيد الشريف عمر المقرون إلى دار القنصل الفرنسى سوسة"[3].

***

١ - الإتحاف ٥/ ٢٠٤.

٢ - الإتحاف ٦/ ٨٠.

٣ - الإتحاف ٥/ ٢٠٨.

٢ - العلماء:

أ - خصائص الحراك التعليمى:

فالعالم أو رجل الدين "هو رمز للمقدس (العقيدة/ الشرع) وهو وريث الأنبياء ومرجع العامة والخاصة (أهل الذكر).

فالعامة تعتبره الممثل الدينى والأخلاقى وتعتمد عليه فى الدفاع عن حقوقها والتعبير عن آرائها والحفاظ على مصالحها عند الحاكمين. لذلك بعث على بن غذاهم رسالة إلى رئيس المفتيين من العلماء المالكية ملحا عليه ضرورة المساهمة فى إسكان حيرة الرعية وإصلاح البلاد. فالعالم داخل النسق الاجتماعى فى القرن التاسع عشر يمثل همزة الوصل بين المجتمع والدولة، وذلك لغياب الحراك السياسى والثقافى المباشر بين القبائل والسلطة السياسية. فالعلماء هم نواب المجتمع عند السلطان باعتبارهم الممثل الوحيد الذى يملك شرعية الخطاب عند الدولة. لذلك قال على بن غذاهم فى رسالته" . . . . وتخاطب عنا مولانا فيما يصلح للخلق ويهنيهم"[١]. فى حين يرى السلطان فى العالم مثال التعقل والاتزان وموطن الحكمة الحقيقة (الشرع). لذلك فهو يقربه إليه نجيا لينتفع من عمله ويستثمر خدماته فى إطفاء الفتن وتهدئة ضجيج العامة. وهذا ما يفسر انتداب الدولة للشيخ الشريف أبى محمد حسن المقرون ومن له سابقا "اليد البيضاء فى إطفاء لهيب فتنة كادت أن تقع فى الحاضرة"[٢]. لإقناع الثوار سنة ١٨٦٤ برفع أيديهم عن مخانق الساحل.

---

١ - الإتحاف ٥/ ١٨٤.

٢ - الإتحاف ٥/ ٢٠٣.

فالعالم فى الـقرن التاسع عشر كـان يشكل أداة الخطاب والتواصل بين المجتـمع والدولة. فشخصـية الاستـقطاب لدى العلماء يبررها القـيام بسلطة موازية لسـلطة الدولة أو أشد خطورة منهـا وذلك لجمـعها بين النفـوذ الدينى (الشرع) والنفوذ الاجتماعى (أهل الذكر للعامة والخاصة).

لكن هل استطاعت النخبة المثقفة فى القرن التـاسع عشر استثمار النفوذ المزدوج كفئة عالمية موجههة مصلحة وناقدة؟

إن الدور الوظيفـى للعلماء داخل المجتـمع يتوقف على طبـيعـة الحراك التعلـيمى الذى يعكس واقع النخـبة المثـقفة من حـيث الانتمـاء الاجتـماعى والطموحات التى تـسعى إليها الفئـة العالمة. فرسالة على بن غـذاهم والفاقد لمشروعية الخطاب الـدينى (الشرع) نتيجة الأمية وتحكم العـادة والعرف فالنمط التـعليمى المتـواضع داخل الفـضاء القـبلى والذى يرتكز على ثقـافة الكتـاب والزوايا هو الذى سيـولد الحراك نحو الثـقافة المكتـوبة ثقافة الشرع وحـضارة المدن. كذلك توظيف السلطة العلماء للتحاور مع سكان الآفاق يعكس الواقع المدينى وثقافة المركز المؤسسة على المدارس ومعارف الجامع الأعظم التى أهلت الفئة العـامة لحسم النزاعات ورد الخـارجين إلى صياصيـهم حتى أن على بن غذاهم لما عزم على التوجه إلى المحروسة (الحـاضرة) اعتبر شيخ الإسلام ذلك ضررا لا يجوز الإقـدام عليه. فكانت إجابة الشيخ بمثـابة المسلمة التى تراجع بمقـتضـاه على بن غذاهم عـن عزمـه وصرح قـائلا: "وحاشى أن نخـالف منهجكم المنتسب للشريعة المحمدية"[1].

---

١ - الإتحاف ٥/ ١٨٥.

فطبيعة الحراك التعليمى بالنسبة للقبيلة تتمثل فى البحث عن مشروعية للخطاب السياسى، ويبقى ذلك رهين التحول من ثقافة الزوايا إلى ثقافة الشرع وبالاتجاه بالحراك من الآفاق إلى المركز. وتتوقف طبيعة الحراك داخل المدينة وخاصة الحاضرة على مدى نجاعة توظيف خطاب الشرع لإضفاء الشرعية على المخزن. وبذلك يبقى مقياس الترقى أو النزول فى الخطط العلمية رهين النصح والوفاء للسلطان.

فقد كان الحراك التعليمى فى القرن التاسع عشر يخضع لقطب دافع وقطب جاذب. فالقطب الدافع هو طموح وأبناء الأصول القروية والقبلية التوجه نحو الحاضرة لاستكمال التعليم بالجامع الأعظم. كذلك الشأن لأبناء العامة ممن ينحدرون من أصول مدنية أو قروية فقيرة.

أما القطب الجاذب فهو جامع الزيتونة بالحاضرة الذى يمكن التحصيل فيه من نيل بعض الشهادات تخول لأصحابها إدارة الأحباس أو الإشراف على الزوايا أو الاشتغال بالقضاء والتعليم سواء فى المراكز المدينية أو بقراهم ونواجعهم. والطموح الأكبر بالنسبة للأغلبية هو الفوز بخدمة من خدمات المخزن.

والتنافس العلمى قد يفرض على البعض الرحلة إلى المغرب الأقصى أو إلى مصر والحجاز لتحصين الثقافة وتنمية التحصيل والفوز ببعض الوظائف السامية بالجامع الأعظم نفسه كالتدريس أو الترقى فى الخطط السياسية رغم ندرتها وصعوبتها أمام أبناء البلاد ولادة.

اتجاهات الحراك نحو السلطة

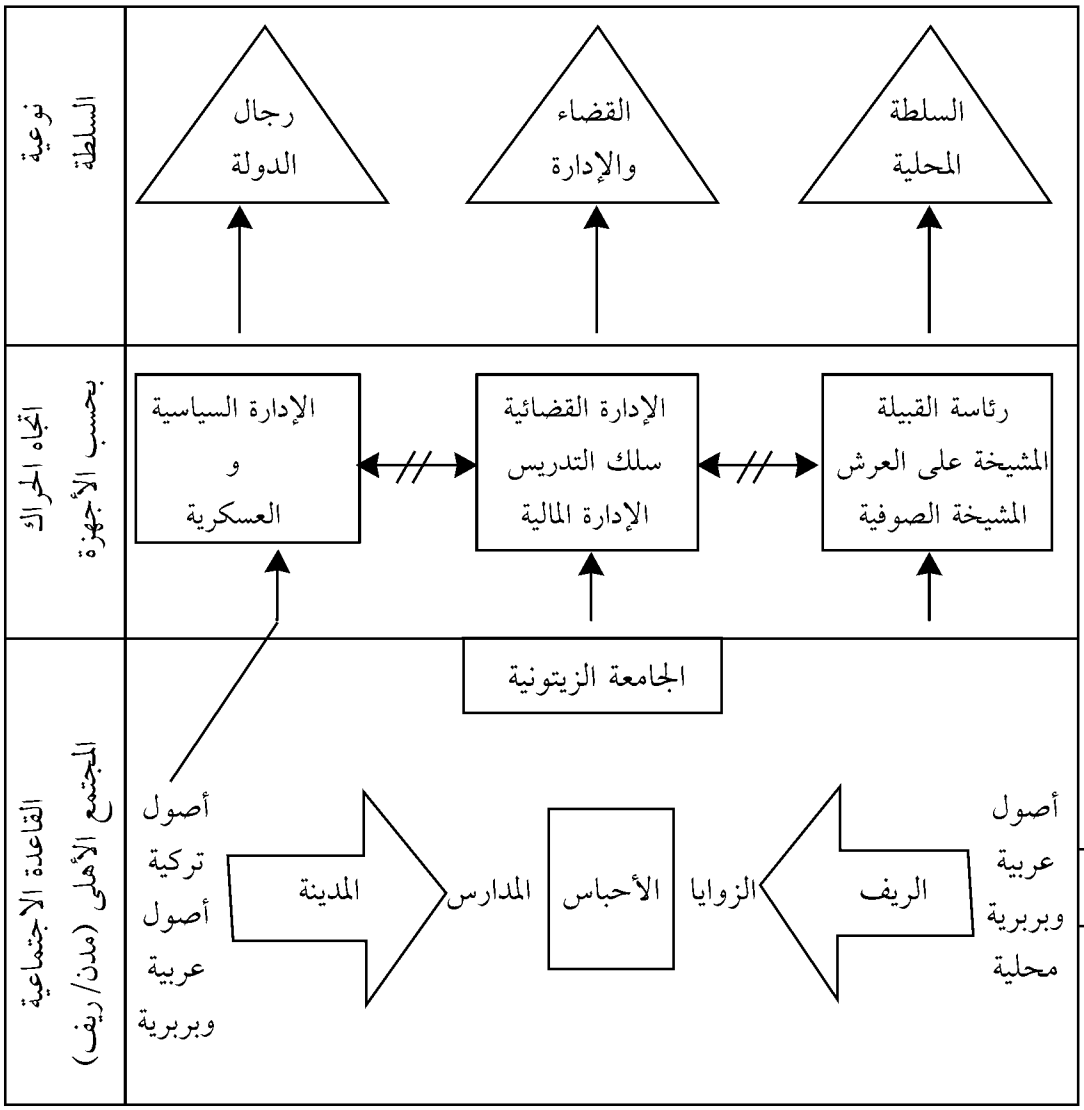

(١)

١ - انظر عبد الوهاب حفيظ: صورة للحراك الاجتماعى والسياسى. حالة تونس فى العهد الحسينى. الوحدة - السنة الخامسة - العدد ٥٧ ذى القعدة ١٤٠٩هـ/ جون ١٩٨٩ ص٣٩.

ب - الخطة بين الوراثة والاكتساب:

لقد شكل العلمـاء باعتبـارهم فئة اجـتماعـية ممتازة إلى جـانب الجيش وموظفى الدولة تنظيـما من أكثـر التنظيمات الهـرمية فى المجـتمع، وذلك لما اشتمل عليه دورهم على مدى واسع من الوظائف كـالخطابة والإمامة والقضاء والإفتـاء. وقد يجمع الواحد منـهم صلاحية الشـغل بأكثر من خطة كـالمفتى محمد سعادة الذى عزله على باشا من مـشيخة التدريس وخطة الفتوى وسائر الوظائف التى يشغلها. ولما أثارت هذه السياسـة حفيظة الشيخ قال لعلى باشا "إنك نسـيت خطة لـم تعـزلنى عنهـا وهى أن تنزع مـا بقلـبى من العلم إن قدرت. فـقال له قاتلك الله اجلس وأنت على سـائر خططك التى تقدر على نزعها والتى لا نقدر"[1] فتعـدد الخطط جلب للعالم سلطة شعبيـة متينة من قبل العـامة التى تراه الممـثل الدينى والأخلاقى الأسـمى. لكن وإن لم يفلح البايات فى عزل العلم مـن صدور الرجال فإنهم أفلحوا كـما سنرى فى عزل العلماء من صدور العامة وذلك لأن سياسة الـبايات كانت تعمل على استثمار أهم العناصر المؤثرة فى المجتمع وعلى الاسـتفادة من أبرز البيوتات التى ارتقى بها نسبها وحسبها سواء بالوراثة أو بـالاكتساب. وهذا ما يفسر استبداد بعض العائلات واحتكارها لأكثر من خطة ووظيـفة أصبحت بذلك الظاهرة الأسرية هى التى تميز النخبـة العالمة عن غيرها. وهذه الظاهرة فى القرن التـاسع عشر لم تشذ فى الواقع عن تاريـخ البلاد. إذ أنه من أشهر العـائلات التى عرفتـها تونس فى القرن السـابع عشر والثامن عشـر نجد عائلة الرصاع وفـتاتة وعائلة البكرى التى بقيت "الإمامة فى بيتهم أكثر من مائة سنة غير معبر فيها إلا هذا

---

١ - الإتحاف ٢/ ١٤٩.

النسب"[1]. كذلك أبدى أهل القيروان تشاؤمهم فى العهد التركى المرادى من احتكار العضاضمة لمناصب العلم وتوارثها بينهم وقد تناقلوا مثلا عندهم وهو قولهم: "القاضى عظومى والمفتى عظومى وأنت لشكون تشكى يا شومى"[2]. وقد سيطرت هذه "الطبقة الأرستقراطية" على المؤسسة الدينية بالحاضرة واحتكرت أهم المناصب القضائية والعلمية طيلة عقودا من الزمن" إذ يكفى أن يشتهر عالم من علمائها ليكسب لنفسه ولعائلته مكانة لدى السلطة الحاكمة ولدى الأوساط الشعبية"[3]. أما ابن أبى الضياف فقد عبر عن الظاهرة الأسرية فى تولى المناصب العلمية بتعابير مختلفة وفى سياقات عديدة نذكر منها: - أصل هذا الرجل من بيت مجد ورفعة... قدم جدهم الأعلى من إشبيلية... وتابعه آل بيته فى الخطط النبيهة"[4].

فالتجذر بالحاضرة والتوطن بالعاصمة لم يكن هينا على أبناء الأقاليم والأرياف لا سيما الفقراء منهم ومن لن ترتق بهم موهبتهم إلى مصاف فحول علماء. وهناك من خرج من ناجعة قومه مثل محمد المناعى من أولاد مناع بدريد. فقد "رحل إلى طلب العلم بالحاضرة... ثم رحل فى طلب الفقه إلى حاضرة فاس.... ولما امتلأ بالعلم صدره، أتى الحاضرة ودرس بالجامع الأعظم"[5].

---

١ - الإتحاف ٧٠/ ٦٠.

٢ - محمد الجودى - تاريخ قضاة القيروان - محفوظ - المجلد رقم ٢١٧٩٩ - ص ٤٣.

3 - Jaque BERQUE: I, Interieur du Maghreb (15e - 19e) siecle. Paris 1978 P 103

٤ - الإتحاف ٨/ ١٤٠.

٥ - الإتحاف ٧/ ١٦٥.

ومن العلماء مـن يتجاوز طمـوحه التدريس بالجـامع الأعظم إلى بعض الخطط المخزنية كـالشيخ أبو الغيث البكرى "الذى التزم الـعلقة والغابة"[1]. والخدمـة المخزنيـة قد تذهب بوقـار العلماء وتدنى من مكـانتهم لدى العـامة والخـاصة. فـالوزير محـمد العـربى زروق قال لـلشيخ المذكـور على سبـيل الاحتقار: "بالأمس كنا نقوم لتلقيك إجلالا لسلفكم وحيث لم ترق بسيرتهم وآثرت عنها الولاية المخزنية فلابد أن تكون كرجـالها تفعل ما يفعلون من غير فرق"[2]. كذلك احتقار جند الترك للشيخ محمد الأصرم الباش كاتب حيث اعتبروه "من المخازنية وليس من أهل المجلس الشرعى"[3].

لذلك يكاد ارتقاء النخب التونسية العالمة يتوقف على:

- النسب العائلى.
- المركز الاجتماعى (الحسب).
- الولاء السياسى المخزنى.
- الموهبة العلمية (أحيانا). "وأقبل بقلبه وقالبه على العلم"[4].

أما بالنسبة للنخب التركية فـهى تمثل "الأرستقراطية" الثرية المنحدرة من كبـرى العائلات التى تمثل قمـة الهرم الاجتـماعى فى الجاه والسلطة بل أكـبر الملكيات والإقطاعات كانت من نصيبهم مثل ملكية آل بيرم وقد استمدت هذه الفئة سيطرتها على المجتمع الحضرى المدينى من نفوذها التاريخى والسياسى لا

---

١ - الإتحاف ٧/ ١٢٨.

٢ - الإتحاف ٧/ ١٢٩.

٣ - الإتحاف ٣/ ١٥٤.

٤ - الإتحاف ٧/ ١٣٨.

سيما وأن شيوخ الترك وعلماء الحنفية من قضاة وجند ومستشارين كانوا من الفلاحين للبلاد سنة ١٥٧٤. وقد استنقص ابن أبى الضياف من عطائهم العلمى آنذاك. "فالقاضى منهم أشبه بالجندى من العالم"[١].

ورغم الانفتاح النسبى على المشاركة المحلية فإن حركة الانتداب حسب ابن أبى الضياف لم تخل من معيارية العصبية المملوكية. من ذلك انتخاب أعضاء المجلس الأكبر الذين "لم يكن فيهم من أبنائها ولادة إلا ابن أبى الضياف"[٢].

فجل المسئوليات فى الإدارة المحلية للبلاد بقيت محتكرة من قبل المماليك والأتراك الأحناف. وهذا التميز لم يكن مؤسسا على العلم والكفاءة لأنه من الاتفاق أن أهل المجلس الأكبر لم يكن منهم واحد من أهل العلم"[٣]. فالمشاركة المشروعة كانت تستند إلى علاقات القرابة والدم التى تلغى معيار الأهلية والجدوى. وسياسة التمايز تتجلى أيضا من خلال توزيع العلماء. فنسبة التمركز بالحاضرة تفوق الأقاليم الأخرى. "فمن جملة ٩٥,٤٪ من المثقفين التونسيين يوجد منهم ٦٠٪ بالعاصمة و٥٪ بالقبائل والبقية موزعون على الأقاليم الأخرى"[٤]. خاصة أن ثلاثة أرباع السكان لا يستوطنون الحواضر.

فهل يمكن الحديث عن نخبة مستقلة وموحدة فكريا لكل هذه الاعتبارات؟ إن أحمد بن أبى الضياف كان كاتب سر البابليك وهو حب المشير

---

١ - الإتحاف ٢/ ١١٧.

٢ - الإتحاف ٥/ ٤٤.

٣ - نفس المرجع.

4 - Demersseman (A) Categories sociales.... P 95

أحمد باى وخير الدين[1]. النصوح الأوفى لم ينفصل عن الوظائف السياسية إلا بالاستقالة. والشيخ إبراهيم الرياحى كان سفيرا للقصر الإمارى. وأغلب العلماء من مفتين وقضاة هم عمال لدى الدولة. لذلك تحول العلماء والفقهاء إلى موظفين لدى الدولة ومنتفعين بربع الأوقاف. ففقدوا كل استغلال يعينهم على نقد البايات وتجاوزاتهم. والنقيصة لا تكمن فى اشتغال العلماء بالوظائف السياسية ولكن فى تقمص دور فقهاء السلاطين والمروق عن نهج المصلحين. وكانت مؤسسة العلماء فى هذا العصر تنقسم إلى فئة حنفية مقربة وفئة مالكية تسعى إلى التقرب. "فالباى كان يجلس قضاة الحنفية عن يمينه.

وقضاة المالكية عن شماله ويؤتى إليهم بأطباق من الفضة فيها شىء من الحلو يطعمه "الولى" معهم ثم يرشون بالطيب ويقرأون الفاتحة ويقوم لوداعهم ويقبلونه"[2].

---

١ - خير الدين باشا هو من قبيلة أبازة الضاربة بجبال الجركس فى الشمال الغربى من بلاد القوقاز. اشتراه نقيب الأشراف فى أسواق الرقيق بالأستانة. ألقته يد الأقدار إلى مبعوث من طرف الباى جاء ينتقى له مماليك سنة ١٢٥٥هـ فى صدر مدة المشير الأول أحمد باى. درس بالمكتب الحربى وترقى فى السلك العسكرى إلى أميرالاى الخيالة سنة ١٢٦٣ صاهر مصطفى خزندار على ابنته. أقام فى باريس ٤ سنوات للبنت فى نازلة بن عياد. رقاه محمد باى إلى رتبة أمير الأمراء سنة ١٢٧٢ ثم إلى وزير البحر ١٢٧٤، كما أنظم إلى العاملين فى تأسيس عهد الأمان. بعثه المشير الثالث إلى عاصمة الخلافة سنة ١٢٧٦ كما قبل رئاسة اللجنة المالية المختلطة سنة ١٢٨٦.

وفى سنة ١٢٩٠ تولى الوزارة الكبرى. وأمام الدسائس والمكائد استغنى من الوزارة وتوجه إلى الأستانة سنة ١٢٩٥ حيث تولى منصب الصدر الأعظم ثم استقال منه سنة ١٢٩٦ وتوفى سنة ١٣٠٨.

الإتحاف ٧/ ٦١ - ٦٢.

٢ - انظر محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار ٢/ ١٢٣.

ويكشف هذا السلوك بوضوح عن حجم النخبة المثقفة فى نظر البايات والتى لم يتجاوز حضورها اللقاءات الودية لأكل الحلو والتطيب بأحدث الروائح. كما أضحت منزلتهم منزلتين واحدة على اليمين والأخرى على الشمال وكذلك مواقفهم. لذلك فقد شنع ابن أبى الضياف بعلماء عصره لأنهم "لم يتنزهوا حتى على تقبيل أيدى أغيلمة صغار من أولاد البای وإخوته وهم لا يتحاشون ذلك بل ربما نظروا شزرا لمن تغافل عن ذلك"[١].

فقد ضمت النخبة المثقفة فى العهد الحسينى فى القرن التاسع عشر من ليس منها ولبس الجبة من ليس من أهلها، فانحرفت عن الدور الاجتماعى والسياسى المنوط بعهدتها حتى أنها اعتبرت "منصبها الشرعى لا يناسبه مباشرة الأمور السياسية"[٢].

لقد ترك "سقوط" شيوخ الطرق الصوفية لدى العامة استياء كبيرا عمقه "انسحاب" العلماء من الساحة الاجتماعية والسياسية، لذلك فقد وصفوا "بعلماء آخر الزمن أعوان الظلمة"[٣] فى ثورة ١٨٦٤. هكذا يرتد الحراك ويتأزم بين المجتمع ورمزه التاريخى والدينى الذى "انقطع إلى العلم انقطاعا كليا ونبذ ما سواه ظهريا"[٤]. ومن العوامل الأخرى المدمرة لمظاهر الحراك التعليمى ضرب الدولة لمظاهر التماسك الداخلى إذ أخضعت إدارة الأحباس لسلطتها وفرضت عليها إرادتها بالقوة. فبعد أن كان أهل العلم والصلاح من أبناء البلاد يشرفون عليها. انتدب لها المشير الأول أعيانا من العسكر لإدارتها.

---

١ - الإتحاف ٥/ ٣٥.

٢ - الإتحاف ٤/ ٢٧٥.

٣ - الإتحاف ٥/ ١٦٢.

٤ - الإتحاف ٥/ ١١٢.

أما محمد الصادق باى فقد استخلص فواضل الأحباس لضروريات العسكر سنة ١٢٧٩/ ١٨٦٣. ولم يعد الوكلاء يشرفون على الأوقاف. ولم تعد المراجعة بيد القاضى أو المحتسب. ومعلوم أن إدارة الأحباس من الوظائف التى يحصل عليها خريجى الآفاق من جامع الزيتونة وأموالها تنفق لمساعدة طلبة العلم والفقراء والمساكين. والنواب الذين قدمهم الأمير استعملوا الشدة العسكرية فى اقتضاء فواضل الأحباس "كأنها غنيمة أنتجها غلب حرب"[١].

نلاحظ فى خاتمة هذه الفصول الثلاثة أن حركية الانتظام والتفاعل داخل البناء الاجتماعى والسياسى تعكس نسقا ثقافيا مترابطا ومتكاملا. فالعلاقة الجدلية التى كانت تربط مختلف الأجهزة والرموز تعبر فى الحقيقة عن خصوصية تاريخية وحضارية لنموذج اجتماعى موحد سياسيا وثقافيا. فالقصر - المدينة - القبيلة - الجامع الأعظم - الزاوية - الأحباس - الطريقة. . . . كل هذه المؤسسات تعكس مواقع مختلفة وأدوار هامة داخل نسق الانتظام الداخلى. فالعلاقة بين القواعد والرموز ليست آلية بل هى امتداد تاريخى وجغرافى لنمط من التضامن العضوى على المستوى المادى والأخلاقى والروحى. وحركة الانفتاح والانغلاق أو الاتصال والانفصال التى تميز نظام العلاقات الداخلية لا تعكس عتاقة المجتمع وركوده التاريخى. بقدر ما تعبر عن الحركة "الانعكاسية" إزاء كل تدهور داخلى أو تهديد خارجى مهدد لتوازن نسق الانتظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى.

وأهمية المراكز وفاعليتها جذبا أو دفعا فى القرن التاسع عشر هى وأهمية المراكز وفاعليتها جذبا أو دفعا فى القرن التاسع عشر هى فى الواقع نتيجة

---

١ - نفس المرجع.

لتناقضات داخلية أو إفرازات لعوامل خارجية ساهمت فى تعميق الخلف بين المجتمع والدولة أو بين المرجع والمستجد. وبناء على ذلك نلاحظ الحراك الصاعد لبعض المراكز التى أضحت محل استقطاب الأطراف الداخلية والخارجية وذلك أمام الحراك النازل لقواعد أخرى تقلص نفوذها التاريخى فى القرن التاسع عشر. فالمذهب الفقهى تراجع نفوذه التاريخى أمام الطريقة الصوفية فقد فرضت رمزيتها الاعتقادية وتوجهها الشعبى من تبوؤ المكانة الوسطى بين مختلف الأطراف. وقد عبر الشيخ إبراهيم الرياحى عن تقلص التأثير الفقهى لدى السلطان بقوله:

قل للأمير نصيحة لا تركنن إلى فقيه

إن الفقيه إذ أتى أبوابكم لا خير فيه[1].

وتراجع المذهب أمام الطريقة يبرزه:

- صرامة المقولات الفقهية فى تقييمها لسلوك سكان المداشر والقبائل.
- ارتباط الإنتاج الفقهى بالمساجد. فلم يكن "المجتمع القبلى" قادرا على رعاية طبقة من الفقهاء لغلبة مظاهر التنقل من مكان إلى آخر.
- تسامح الفقهاء مع ظاهرة التصوف لمساهمتها فى نشر العقيدة لدى عامة الناس ولدى "الضالين" من الأعراب. "إذ أن الكثير من أهل الخيام والمداشر لا يعرفون عدد أوقات الصلاة وغيرها من الفروض العينية"[2].

---

١ - محمد بن الخوجة: صفحات من تاريخ تونس: تقديم وتحقيق حمادى الساحلى والجيلانى بالحاج يحى. دار الغرب الإسلامى - بيروت ط ١ (١٩٨٦) ص ٢٠٠.

٢ - محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار ١٥٢.

وعلى هذا الأساس أصبحت الطريقة الصوفية فى القرن التاسع عشر تشكل عنصر الائتلاف روحى وفكرى بين مختلف الأطراف الاجتماعية والسياسية. وهذا ما يبرر تنديد الفقهاء ورفضهم للدعوة الوهابية[1] التى تناهض الطرق الصوفية. وقد فسر ابن أبى الضياف الدعوة الوهابية بأنها عصبية دينية تريد الملك. أما أبو حفص عمر المحجوب فقد "اتهمها بالضلالة والشذوذ"[2]. لكن لما ناهضت أبرز الطرق الصوفية انتفاضة عامة القبائل وسكان الإيالة من المداشر والقرى وإنجازات إلى المخزن؟. آنذاك تقلصت شرعيتها الروحية والاجتماعية. ولم تجد العامة فى التعبير عن واقعها إلا الاعتقاد فى بركة الأولياء والتوسل بكرامتهم. "حتى أن الواحد من قبيلة زوارة البربرية إذا حلف بسيدى البشير فإنه لا يكاد يحنث وسبحته يتبركون بها ويتعاهدون عليها"[3].

أما بالنسبة لحركة القبائل فى القرن التاسع عشر فإنها تعكس واقعا اجتماعيا بدأ يفقد خصوصيته التاريخية والإنتاجية والتكافلية أمام سياسة الدولة واعتقاداتها "بأن العربان إذا كثر مالهم ساء حالهم". وأمام التأثير الاقتصادى للنفوذ الرأسمالى الأجنبى وتأثيره على القطاعات المحلية للإنتاج والتبادل.

---

١ - الوهابية نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب أسسها سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٠م بالحجاز. ومضمونها المطالبة بقرشية الخليفة وتصديق الاعتقاد وتوكيد التوحيد انظر د. محمد خليل هراس: الحركة الوهابية دار الكتاب العربى بيروت ص ١١.

٢ - انظر رسالته فى الرد على الوهابية الإتحاف ٣/ ٨٥ - ٩٥.

٣ - الإتحاف ٧/ ١٤٥.

فالصراع الاجتماعى والسياسى سنة ١٨٦٤ بين القبائل والدول هو فى الحقيقة المحاولة الأخيرة للمحافظة على نموذج اجتماعى بدوى يقوم على ممارسات تعاونية[١] تعمل على تدعيم اللحمة الداخلية بين سكان البوادى والعروش. وفعلا نزل الهرم بالقبيلة وتراجعت قيم البداوة.

"ولم يبق فى تلك الجهات (البوادى) من ينظر إليه فى رد جاهل أو تقويم معوج أو إرشاد ضال أو إيواء ابن سبيل"[٢]. وتجربة التسير الذاتى لدى المجتمع القبلى ليست نمطا بدائيا أو متخلفا ومنغلقا على الحضارة. إنما التناقض بين طبيعة الدولة القائمة وخصوصية المجتمع هو الذى أدى إلى انعزال السلطان عن الواقع الاجتماعى. فمن خلال تصور الدولة الحسينية لذاتها:

- هى الحامية للوطن والدين.
- هى الطرف المهيمن والقوى.
- هى الحامية لأمانة السلف ووصية الأجداد.
- هى القائمة بأعباء الجباية والقضاء.

ندرك أن شرعيتها لا تتجاوز هذه الوظائف. أما القطاعات الأخرى كالصحة والتعليم والأمن والزراعة والتجارة وكل المصالح الاجتماعية فهى

---

١ - الدولاب: الإعانة على الحرث والبذر.

الرزية: التخفيف من مصائب من تموت له شاه أو بقرة أو ناقة وذلك بمشاركته فى استهلاك لحمها مع تعويض ثمنها.

- الكرسى: إعانة العروس على نفقات الزواج.
- الزردة: تقديم الكسكسى باللحم لزوار أضرحة الأولياء.

٢ - الإتحاف ٦/ ٤٣.

خارجة عن اهتماماتها. وأمام التهور الأجنبى والضغط الرأسمالى استمرت سلطة الدولة على العباد أكثر من سيطرتها على البلاد (الأرض). لذلك توجه أحمد باى إلى فرنسا يبحث عن شرعية البقاء.

أما بالنسبة إلى الحواضر فقد شكلت عبر تاريخ البلاد مراكز العلم والدين والأمن. وقد ساهمت هذه المعالم الحضرية فى استهجان تقاليد البدو التى تتناقض مع معالم العمران الحضارى لا سيما أشكال الغزو والإغارة. وفى انتفاضة ١٨٦٤ رغم عموم السبب لم يكن سهلا تجاوز الموروث التاريخى والسلبى بينهما. إذ سرعان ما انتهت مشاركة المدن فى الانتفاضة بإعلان الولاء السياسى للحكومة. ولعل ما يبرز ضعف المراكز المدنية وهامشيتها عن مظاهر الصراع الاجتماعى والسياسى عبر تاريخ الإيالة هو غلبة الطابع البدوى والقبلى على مظاهر العمران الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر. إذ أن ثلاثة أرباع السكان ينتمون إلى أصول قبلية. وهو ما يفسر عدم استقرار المركز السياسى عبر تاريخ البلاد وتحوله من القيروان إلى المهدية ثم إلى تونس. لم يكن الانتقاض والخروج والثورة من تقاليد سكان المدن عبر تاريخ البلاد كما بين ذلك ابن أبى الضياف.

فديدن هذه الحواضر هو البحث عن الاستقرار وعن جو يخلو من الفتن والثوار. لذلك لم تتجاوز الانتفاضات داخل الحواضر التونسية الأشكال المطلبية المحدودة.

وقد لاحظنا من خلال انتفاضة ١٨٦٤ تراجع الأدوار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمدن الوسط والشمال الغربى. فقد تحلوت مدن باجة - الكاف القيروان. . . . . إلى قلاع عسكرية لمراقبة تحركات القبائل ومقاومة كل

تمرد محتـمل. بذلك فقدت هذه المدن دورها فى إقامـة التواصل والتوازن بين عالم البدو والرحل وعالم المتحضرين.

وقد تقلص الدور الثقافى والدينى لمدينة القيروان فى إصلاح عامة سكان القبائل وتوجيهها. وأصبحت فى العهد الحسينى مدينة سباسب لا غير. وأمام تراجع هذه المدن تحولت مدن الساحل إلى قلاع اقتـصادية ومراكز تجارية هامة وذلك لانفصـالها النسبى عن القطاعـات الإنتاجية الـريفية وارتباطهـا بالجارة الأوروبية.

عموما الاختلاف فى التوجه والهدف بين المجتمع والدولة بالإضافة إلى أشكال "التـمرتب الاجـتماعى المـتوارث"[1] على مـستـوى السلطة والخطة والحرفة والمشيـخة. علاوة على تدهور القطاعات الإنتاجية لا سـيما التوظيف الردى للفوائض الإنـتاجيـة. كل هذه الأسباب سـاهمت فى تداعى الحركـية الاجتماعـية ونظام العلاقات الداخلية. حـيث تدهور القطاع الفلاحى بتدهور القبيلة. وازدادت جاذبية الوسط الحضـرى المدينى فى القرن التاسع عشر على مستوى التعليم والمهن التجارية والصناعة التى تبعثها الاستثمارات الأجنبية. مما ساهم فى ترييف المدينة عوض تمدين الأرياف.

---

١ - كان التحـرك الاجتماعى يتم فى إطار موروث فـقد حافظ المجتمع على تقـاليده. فرغم الثورات والانتقال من دولة إلى أخرى ورغم المحـن والانقلابات بقيت الأخلاق والعادات على ما كانت عليـه فى القرون السابقة. وبقى التقليـد متحكما فى الخاصـة والعامة... كانت الأقدميـة دليلا على الشرف والحكمة ما أثر عن السلف. وكانـت البدع مستنكرة. وتعتبر علامة من علامات آخر الزمن.

انظر أحمد عبد السلام: المؤرخون التونسيون ص ٩٠.

لكن إلى أى حد يمكن اعـتبار هذه التحـولات الاجتماعـية والسياسـية تجاوزا للتعليل الخلدونى؟ وهل يمكن الحـديث عن أرض بلا شعب فى القرن التاسع عشر؟ ثم إلى أى حد تلتقى وتتقـرب هذه المقاربات الفكرية مع حقيقة الواقع وخطاب المؤرخ أو بين ملابسات الظرف والرؤية الفكرية؟